تقـديم

نحن نعيش فى زمن مثير. فقد بدأت فى هذا الكتاب قبل الهجوم الذى وقع على مركز التجارة العالمى فى سبتمبر ٢٠٠١ م. وفجأة بدا أن بحثى الهادئ فى طبيعة الهوية والمصير الأمريكى جزءًا من محادثة قلقة حادة يقوم بها الجميع؛ إذ إن الإحساس البريطانى بالانخراط فى المعاناة الأمريكية، وإسهام بريطانيا فى «الحرب الأمريكية ضد الإرهاب» كشف بشكل ملح عنْ دور بريطانيا العام فى مقابل أمريكا، وهو موضوع مهم آخر كان يحظى باهتمامى.

كان إحساسى الخاص باللوعة فى البداية كثيفا، بحيث منعنى من الانفصال العقلى الضرورى لمواصلة الكتابة، ليس فقط لأن زوجتى من مانهاتن وأنا أعرف هذه المدينة العظيمة وأحبها. كان علىّ أن أتوقف فترة من الزمن. فما كنت أتصوره أساسًا كتابًا عن التاريخ الأنجلو ـ أمريكى صار كتابًا فى الشئون الجارية، بل هو فى الواقع عما يسميه الصحفيون قصة خبر العقد، وكل من عداهم يعتبره أكبر كارثة مرعبة شاهدوها، أو سمعوا بها. ومثل ملايين غيرى، جلست أنا وزوجتى نشاهده وهو يحدث، حيًا على شاشة قناة CNN.

ما هى أمريكا؟ من هم الإنجليز؟ مقالتى هى أن السر الكامن وراء هذه الأسرار موجود فى رواية صاغها الإنجليز، ثم تلاهم الأمريكيون لأنفسهم، تقوم على أساس تحويل التشابه بين موقفهم وموقف بنى إسرائيل القدماء. هذا هو أصل مصطلح «الشعب المختار». إنه لم يكن مجرد أنهم مختارون من الرب بصفة خاصة. وفى أذهانهم أن اختيارهم بصفة خاصة تم لنفس الغرض الذى اختار الرب اليهود من أجله (ثم نبذهم)، وأن هذا الغرض كان أساسيًا بالنسبة للجنس البشرى على هذا الكوكب.

أما الشيء الذى استمر يدهشنى، ما أن يبدأ المرء فى النظر من هذا المنظور، فهو المدى الذى تقدمت إليه هذه الأفكار لتسوق سلسلة كاملة من التطورات التى كانت حاسمة فى اتجاه التاريخ: ظهور الدولة الوطنية وعزلة انجلترا عن أوروبا؛ الحرب الأهلية الإنجليزية التى جعلت أوليفر كرومويل يحنق على شارل الأول، الإطاحة بچيمس الثانى والأساطير المسلية عن الثورة المجيدة، كراهية فرنسا وإسپانيا، الاستيطان الباكر فى أمريكا، انفصال أمريكا عن انجلترا فى الحرب الثورية، القضاء على سكان أمريكا الأصليين «الهنود»؛ بسبب التوسع الأمريكى فى الغرب، مكاسب انجلترا من تجارة الرقيق ثم معارضتها لها فيما بعد، الحرب الأهلية الأمريكية والقضاء على الرق؛ نمو الإمبراطورية البريطانية فى الهند وأفريقيا؛ تأسيس «وطن قومى لليهود» فى الشرق الأوسط، تورط انجلترا فى حرب القرم ثم فى الحرب العالمية الأولى (والواقع فى الحرب العالمية الثانية أيضًا)، حركة الحقوق المدنية الأمريكية، الاستقامة السياسية، انهيار التمييز العنصرى. ويمكننى أن استمر.

وإذا نحينا أيرلندا الشمالية جانبًا، فإن الكتاب صار تقريبا المعادل التاريخى واللاهوتى للبحث العلمى عن «نظرية لكل شيء»؛ إذ إنه يجيء إلى الساحة نفسها بالسير إسحاق نيوتن ومارتن لوثر كنج، والفيلد مارشال دوجلاس هيج، وچورچ واشنطن، وچورچ دبليو بوش وتوماس مور، وآدم وحواء، والاتحاد الأوروپى. والمادة الخام الحقيقية لهذه النظرية هى معروفة جيدًا بالفعل، كما أن بعض الكتاب استكشفوا الأجزاء التى يعرفونها أحسن من غيرها بطريقة ذكية، ولكنها مبعثرة بين المتخصصين. والخبرة لها عيوبها. فالمؤرخون الذين كتبوا عن الحرب الأهلية الأمريكية لا يعرفون الكثير عن جفوة هنرى الثامن مع روما، واللاهوتيون الكالڤينيون لا يفهمون فى سياسة شركة الهند الشرقية تجاه حرق الأرامل، والخبراء فى دستور انجلترا أو أمريكا لا يعرفون طريقهم إلى سفر التثنية أو الحوليات، والباحثون فى معاداة السامية والهولوكوست لا يرون أية علاقة تربط بين هذا وبين حرب الاستقلال الأمريكية. وما يربط كل هذه الأشياء فى الحزمة نفسها هو مفهوم الشعب المختار. وزعمى الوحيد هو أننى أعرف ما يكفى عن كل من هذه الأمور بحيث أجمعها سويًا.

وللوهلة الأولى (على الأقل بالنسبة لعينىّ الحديثتين) يبدو المفهوم وقد عفا عليه الزمن تمامًا، أو يبدو شيئا محدودًا فى إطار المتطرفين الأصوليين. ولا شك فى أن هذا أحد الأسباب فى أن الباحثين عزفوا عن هذا، كما أنه ليس من المعاصرة أن تنظر باتجاه الدين ـ والمذهب البروتستانتى بصفة خاصة ـ لكى تفسر أى شىء. ولكن هذا الكتاب يتضمن بالضرورة حضور هذا المفهوم فى انجلترا وأمريكا خلال مئات السنين القليلة الماضية من تاريخهما، وبرهن هذا الحضور على أنه عامل حسم فى الطريقة التى تحول بها التاريخ، والحضور الضمنى المستمر ـ وأحيانا الغياب على نحو لا يقل أهمية ـ لهذا المفهوم ما يزال يكشف عن قدر كبير يتعلق بالحالة الراهنة لهذين البلدين غير العاديين، بما فى ذلك دوافعها.

هذا الكتاب ليس ضد الدين، على الرغم من أنه يكشف عن أوجه القصور فى صيغة معينة للمسيحية البروتستانتية ـ كانت منذ زمن غير بعيد النوع الوحيد منها ـ يعتبرها معظم البروتستانت المحدثين الآن قد عفى عليها الزمن تمامًا، بيد أنه لا يكفى أن نقول «حسنا، هذه كانت غلطة، دعنا ننساها» إذا ما كان البلدان مستمرين على نفس خط السير الذى تم تحديده هكذا، وإذا ما كنا راغبين فى معرفة السبب فى أنهما على الحال التى هما عليها، فإن من الواجب عليهما أن ينظرا إلى تاريخهما المشترك ولا يمكنهما فعل ذلك من خلال عدسات تحجب الدين فى القلب، لمجرد أن الناس «لم يعودوا يؤمنون بهذا». ولذلك فإنه إذا كان هذا الكتاب يساعدنا على الاتصال بماضينا؛ لكى نسيطر على مستقبلنا بطريقة أفضل، فإنه يكون قد أدى عمله.

كليفورد لونجلى

يناير ٢٠٠٢، انجلترا